

ملاح من منهج ابن باديس في تغيير المجتمع

أ/مخلوف مصطفى

مفتش التوجيه الديني والتعليم القرآني، لولاية سطيف

1 . الاقتداء بهم والاعتبار
بمواظبتهم وأحوالهم.

2 . صلاح القلب ونزول الرحمة:
قال أحمد بن حنبل يقول: سمعت
سفيان بن عيينة يقول: تنزل الرحمة
عند ذكر الصالحين⁽¹⁾.

4 . محبة الصالحين والاعتزاز
بهم: لأن قراءة تراجمهم والوقوف
عند أحوالهم تبعث على ذلك،
فطوبى لمن أحبه في الله والله جل
وعلا، لقول النبي ﷺ: «إِنَّكَ مَعَ
مَنْ أَحْبَبْتَ»⁽²⁾.

5 . الاستفادة من خلاصة
تجاربهم وعصارة فكرهم، نقل عن
أبي حنيفة ﷺ: «سير الرجال أحب
إلي من كثير من الفقه»⁽³⁾.

ذكر الصالحين ومراجعة سيرهم
وتشنيف الأذان بسماع أخبارهم، مما
يثلج صدور المؤمنين وينزل السكينة
في قلوب الموحدين، فهم القدوة
والمثل، والنموذج الأسمى في تطبيق
أخلاق الإسلام.

وقد كان القرآن الكريم يقصُّ
علينا أخبار الأنبياء الكرام، فنحسُّ
بالقمة الإنسانية الشامخة ترنو إلينا،
فستنهض هممنا، ويقص علينا أخبار
الصالحين من غير الأنبياء، الذين كان
لهم الدور الكبير في نشر كلمة لا
إله إلا الله، وإعلائها، وتحمل الأذى،
والصبر عليه.

وذكر الصالحين وتتبع سيرهم فيه
فوائد كثيرة منها:

الخروج من النفق المظلم الذي كان يعيش فيه وسار به رويدا رويدا إلى باب الحرية، وفق خطوات مدروسة ومنهج محكم.

إن محاولات ابن باديس لتغيير المجتمع الجزائري وتحقيق الأهداف التي كان يصبوا إليها، لم يكن ذلك بالأمر الهين والسهل، نظرا لتعقد الواقع الذي بدأ العمل فيه، تعقده من حيث عناصره ومكوناته، فكريا وعقديا ومذهبيا.

ولقد استطاع ابن باديس أن يحقق - إلى حد ما - جملة من المنجزات والأهداف القريبة، سواء على المستوى العقدي أو الفكري أو الأخلاقي، وأن يعيد كذلك لمقومات شخصية المسلم الجزائري الدين واللغة والتاريخ والوطن، مكائنها في نفسيته وتفكيره ووعيه وسلوكه.

- فما هي الأسس والأبعاد المنهجية التي اعتمدها ابن باديس لتغيير الواقع الاجتماعي؟

والعلماء لهم فضل كبير، ومكانة محفوظة في دين الإسلام، فهم أعلام الهدى ومصابيح الدجى، وهم الذين يقودون الأمة إلى جادة الحق والصواب، فعن طريقهم يعرف المسلم الحلال من الحرام، والحق من الباطل، وهم الذين يقيضهم الله لهذا الدين، فيحملونه على أعتاقهم، ويذبون عنه تحريف الغالين، وتأويل الجاهلين، وانتحال المبطلين، وهم ورثة الأنبياء، كما جاء في الحديث: «إِنَّ الْعُلَمَاءَ وَرَثَةُ الْأَنْبِيَاءِ، إِنَّ الْأَنْبِيَاءَ لَمْ يُوَرِّثُوا دِينَارًا وَلَا دِرْهَمًا إِنَّمَا وَرَّثُوا الْعِلْمَ، فَمَنْ أَخَذَ بِهِ أَخَذَ بِحَظِّ وَافِرٍ»⁽⁴⁾.

الظروف التي ظهر فيها ابن باديس

في ظروف صعبة وخطيرة كادت تقضي على المجتمع الجزائري ومقومات شخصيته، بعث الله تعالى للجزائر في ليلها الحالك المظلم رجلا حكيما رشيدا صلبا جدد لها دينها وغير حياتها ونهض بالمجتمع الجزائري من جديد، وأنار له طريق

معنى المنهج:

المعنى اللغوي: هو الطريق أو السبيل أو المسلك الواضح البين أو الخطة المرسومة أو الطريق الأقصر والأسلم للوصول إلى الهدف المنشود، أو هو طائفة من القواعد العامة المصوغة من أجل الوصول إلى الحقيقة.

المعنى الاصطلاحي للمنهج:

المراد بالمنهج هنا منهج تغيير وإصلاح المجتمع المسلم، لأنه لا يمكن تطبيق آليات منهج ما تم استيرادها من خارج أفكار وقيم المجتمع الذي يراد تغييره.

إذا وفقا لما سبق ذكره فالمنهج هو الكيفيات العملية المنظمة التي حاول من خلالها تغيير المجتمع الجزائري انطلاقا من مبادئ ثابتة للوصول إلى أهداف منشودة مع مواجهة المشكلات والعوائق التي تعترض طريق وسيل هذا التغيير. فالأبعاد المنهجية للعمل التغييري الباديسي تتمحور حول ثلاث نقاط:

أولا - بعد الوعي بالإطار المرجعي:

والإطار والنموذج المرجعي الموجه للتغيير الاجتماعي الإسلامي هو الإسلام ذاته كوحي من الله تعالى الذي يشمل المصدرين الأساسيين: الكتاب والسنة الشريفة، ولا يتم هذا التغيير ويحقق أهدافه إلا بالوعي والفهم لهذا الوحي (الكتاب والسنة) في أبعاده وخصائصه الربانية والعالمية والشمولية والإنسانية والواقعية، والتي «أدى الجهل بها أو تجاهلها قديما وحديثا إلى انحراف في الفهم، بلغ أحيانا إلى ما يهدم الدين نفسه وينقضه في أساسه»⁽⁵⁾.

فابن باديس أدرك هذه الحقيقة فقد كان اهتمامه منصبا على فهم الإسلام وتنزيل هذا الفهم في الواقع الجزائري.

وقد عكف ابن باديس ما يناهز ربع قرن يفسر كتاب الله من خلال مجالس التذكير من كلام الحكيم الخبير.

ويشرح سنة النبي ﷺ معتمدا في ذلك على كتاب «الموطأ» للإمام

أن هناك أسبابا وضعها الله في الكون وأن هذه الأسباب إنما تؤدي إلى مسبباتها بمشيئة الله الخالق لكل شيء.

ففي معرض تفسيره لقوله تعالى: ﴿كَلَّا نُمَدِّ هَتُولَاءَ وَهَتُولَاءَ مِنْ عَطَاءِ رَبِّكَ وَمَا كَانَ عَطَاءُ رَبِّكَ مَحْظُورًا﴾⁽⁷⁾، يقول ابن باديس: «وقد أفادت الآية... أن أسباب الحياة والعمران والتقدم فيهما مبذولة للخلق على السواء، وأن من تمسك بسبب بلغ - بإذن الله - إلى مسيبه، سواء أكان برا أو فاجرا، مؤمنا أو كافرا... فهذه الآية من أنجع الدواء لفتنة المسلم المتأخر بغيره المتقدم، لما فيه من بيان أن ذلك المسلم ما تأخر بسبب إسلامه، وأن غيره ما تقدم بعدم إسلامه، وأن السبب في التقدم والتأخر هو التمسك والترك للأسباب ولو أن المسلم تمسك بها كما يأمره الإسلام لكان - مثل سالف أيامه - سيد الأنام»⁽⁸⁾.

ثانيا: بعد الفهم للواقع الإنساني فهم الواقع الإنساني يعني فقه ودراسة الواقع الفطري للإنسان

«مالك بن أنس» تفسيرا وشرحا، من خلال مجالس التذكير في كلام البشير النذير.

حاول من خلاله إعادة الوظيفة التغييرية والتوجيهية لكتاب الله وسنة رسوله، ومستمدا منهما أسس نهضة المجتمع الجزائري وإصلاحه، ولم تتأت هذه المحاولة من ابن باديس لولا وعيه وفهمه للإسلام في أبعاده وخصائصه السابقة.

يقول رحمه الله في هذا الشأن: «إن الإسلام عقد اجتماعي عام فيه جميع ما يحتاج إليه الإنسان في جميع نواحي الحياة لسعادته ورقيه وقد دلت تجارب الحياة كثيرا من علماء الأمم المتمدنة على أن لا نجاة للعالم مما هو فيه إلا بإصلاح عام على مبادئ الإسلام...»⁽⁶⁾.

كما يؤكد ابن باديس من خلال فهمه العميق للإسلام أن التقدم المادي والحضاري للمجتمعات يكون وفق الأخذ بالأسباب ومسبباتها؛ حيث بين

وثبات وجهتها إلى الخير بث الثقة بها وبعث الأمل فيها والابتعاد عن احتقارها وتثييط عزيمتها، لأن الشعور بالثقة والأمل يولد القوة والرغبة في العمل لنيل المطلوب، أما الإحساس بالاحتقار والعجز فإنه طريق الشر وموت الهمم، وقد أوضح ابن باديس هذا المعنى في معرض شرحه لحديث النبي ﷺ: «إِذَا قَالَ الرَّجُلُ: هَلَكَ النَّاسُ فَهُوَ أَهْلَكُهُمْ»⁽¹¹⁾ مالك ومسلم.

ثم إن القراءة المتواصلة والدراسة المتعمقة للواقع الجزائري المعيش جعلت ابن باديس يدرك أن عمق الأزمة التي يعيشها المجتمع وتهدد مستقبله وتسير به نحو الانحطاط وبالتالي تبقي على موقعه كتابع ومستبعد وخاضع للتيارات الدخيلة... أن عمق هذه الأزمة يكمن في الاختلال الذي أصاب عالمه الثقافي، وكان له الأثر السلبي في نفسيته وعقليته وسلوكيته الفردية والجماعية.

والواقع المعيش المراد تغييره وإصلاحه وفق تعاليم الإسلام وهديه وما يستلزمه ذلك من خطوات إجرائية...

ويؤكد ابن باديس أن فهم الواقع أمر يفرضه الشرع، حيث يذكر عند تفسيره لقول الله تعالى: ﴿وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُولَئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْئُولًا﴾⁽⁹⁾ ، أن الله تعالى بين: «... لعباده في محكم كتابه أنه لا يجوز لهم ولا يصحّ منهم البناء لأقوالهم وأعمالهم واعتقاداتهم إلا على إدراك واحد، وهو العلم، فقال تعالى: ﴿وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ﴾ أي لا تتبع ما لا علم لك به، فلا يكن منك إتباع بالقول أو الفعل، أو بالقلب. لما لا تعلم، فنهانا أن نعتقد إلا عن علم أو نفعل إلا عن علم أو نقول إلا عن علم...»⁽¹⁰⁾.

ويرى ابن باديس في جانب الفهم للواقع الانساني في بعده الفطري أن من أسباب صلاح النفس البشرية

التغيير، وحماية ما تم إنجازه، كما يتضمن فقه الإنجاز تنزيل تعاليم الدين على الواقع الإنساني المراد تغييره.

ولقد حاول ابن باديس من خلال اجتهاده في فهم نصوص الوحي الذي يمثل الإطار المرجعي لعمله التغيير، حاول تنزيل تعاليمه على الواقع الاجتماعي، منتهجا في ذلك كل الوسائل والأساليب المتوفرة لديه قصد الوصول إلى الأهداف التي يصبو إليها.

وأبرز ما انتهجه الشيخ ابن باديس في فقه الانجاز هو:

التدرج والمرحلية:

فبالرجوع إلى المعطيات التاريخية للتغيير الاجتماعي الباديسي والذي امتد على مدار سبع وعشرين سنة تقريبا، أي من سنة 1913 إلى سنة 1940م، فإنه لم يكن على وتيرة واحدة، بل تنوع من مرحلة إلى أخرى.

ورأى أن مكنم الداء الذي أصاب العالم الثقافي كان في أبعاده العقدية والروحية والمعرفية والسلوكية، مما كانت له آثار سلبية خطيرة في المجتمع، يوضح ابن باديس ذلك قائلا: «رأينا كما يرى كل مبصر ما نحن عليه معشر المسلمين من انحطاط في الخلق، وفساد في العقيدة، وجمود في الفكر، وقعود عن العمل، وانحلال في الوحدة، وتعاكس في الوجهة، واقتراق في السير، حتى خارت النفوس القوية وفترت العزائم المتقدمة، وماتت الهمم الوثابة، ودفنت الآمال في صدور الرجال، واستولى القنوط القاتل واليأس المميت، فأحاطت بنا الويلات من كل جهة، وانصبت علينا المصائب من كل جانب»⁽¹²⁾.

ثالثا: فقه الإنجاز للعمل التغيير.

المقصود بفقه الإنجاز هنا منهجية التعامل الإيجابي والمؤثر مع الواقع الإنساني بعد فهمه ووعيه، والعمل على ضمان استمرارية العمل

دون أن يشيد الجدران؟» فقالوا: كلاً! ولا يمكن هذا. فقال لهم: «إن من أراد أن يبني داره فعليه أن يبني الأسس ويقيم الجدران أولاً، ثم يشيد السقف على تلك الجدران، ومن أراد أن يبني شعباً ويقيم أمة فإنه يبدأ من الأساس لا من السقف»⁽¹³⁾.

المرحلة الثانية: تمتد من سنة 1924م إلى سنة 1931م، وتعد هذه المرحلة إرهاصاً للعمل الجماعي، حيث بدأ ابن باديس يضع الخطوات الأولى للعمل المؤسسي، من حيث العزم على إنشاء جمعية أو مؤسسة تضم العلماء المسلمين الجزائريين، ويذكر في هذا الصدد الشيخ محمد البشير الإبراهيمي: «أن ابن باديس زاره في مدينة «سطيف» سنة 1924م، وأخبره أنه عقد العزم على تأسيس جمعية باسم «الإخاء العلمي»، يكون مركزها العام بمدينة قسنطينة... تجمع شمل العلماء والطلبة وتوحد جهودهم وتقارب بين مناحبهم في التعليم والتفكير

ويمكن تقسيم المراحل التي مرّ بها التغيير الاجتماعي الباديسي إلى مرحلتين أساسيتين: مرحلة العمل الفردي، ومرحلة العمل الجماعي.

1. مرحلة العمل الفردي:

ويمكن تقسيمها هي الأخرى إلى مرحلتين:

المرحلة الأولى: تمتد من سنة 1913 إلى سنة 1924، وتميزت بوضع ابن باديس للحجر الأساس في بناء النهضة الجزائرية وتحديد نقطة البداية في العمل التغيير، حيث انطلق من التعليم كأساس لتوعية القاعدة الشعبية للنهوض بها مستقبلاً حتى تحمل راية الحرية عن وعي وليس عن جهل، وهذا ما بينه ابن باديس لما التف نفر من الشباب المتحمس حوله سنة 1933م بنادي الترقى، «وطلبوا منه أن يرفع صوته قويا مدويا عاليا مطالباً باستقلال الجزائر وحريتها، فقال لهم: «وهل رأيتم أيها الأبناء إنساناً يقيم سقفاً

...ثم حدثت حوادث عطلت المشروع...».

وتميزت هذه المرحلة بإدراك ابن باديس لدور الصحافة والعمل الإعلامي عموماً في التغيير الاجتماعي، لأن «هناك شرائح من المجتمع لا بد أن تخاطب بوسائل إعلامية أخرى، فدخل ميدان الصحافة لما لها من دور مؤثر في التثقيف وتشكيل الرأي العام المناصر للقيم الإسلامية، والمستنكر لانتقاص عرى الإسلام»⁽¹⁴⁾.

وانتهج ابن باديس في هذه المرحلة المرونة السياسية في التعامل مع الاستعمار، خاصة بعد اللهجة القوية والصريحة التي انطلق بها في تحرير مقالات جريدة المنتقد، والتي أدت إلى توقيفها، ولما أنشأ الشهاب خفف من تلك اللهجة.

2. مرحلة العمل الجماعي:

وتمتد هذه المرحلة من سنة 1931م إلى عام 1940م، وتميزت

هي الأخرى بمرحلتين مختلفتين، تظهر من خلال مواجهة ابن باديس للاستعمار الفرنسي وأعدائه:

المرحلة الأولى: تمتد من سنة 1931م إلى سنة 1936م، أي بتأسيس جمعية العلماء المسلمين الجزائريين (5ماي 1931) ودخول ابن باديس مجال العمل الجماعي، وإدراكه لأهميته في المواجهة في هذه المرحلة، بعد السنوات الطوال في العمل الفردي.

ولقد واصل ابن باديس في هذه المرحلة منهجه في المداواة والمرونة السياسية، حيث لم يقع في فخ المواجهة المباشرة العدائية مع الإدارة الاستعمارية، ويظهر ذلك جلياً في ما تضمنه القانون الأساسي لجمعية العلماء المسلمين الجزائريين، حيث جاء في الفصل الثالث منه: «لا يسوغ لهذه الجمعية بأي حال من الأحوال أن تخوض أو تتدخل في المسائل السياسية»⁽¹⁵⁾.

الجزائريين، حيث قال: «...ثم نحن من بعد ذلك سنحتفظ للمحسن بإحسانه وللمسيء بإساءته».

إن هذا التنوع والتدرج في العمل التغييري الباديسي ليعكس «مدى وعي ابن باديس بالحقب التاريخية والتبدلات التي تطرأ على المجتمعات، ودلائل النهضة كيف تظهر، وتتطلب من الراعين لها الانتقال إلى حقبة تاريخية جديدة تتطلب أدوات جديدة، وسبلا مستحدثة، مما يكسب الحركة التغيرية الديناميكية اللازمة، وينفي عنها التكرار والرتابة والانحباس رهن مقولات جامدة وأطر منغلقة»⁽¹⁶⁾، ويضمن لها الاستمرارية والتواصل إلى أن تتحقق أهدافها المتوخاة.

رابعا - دور العلم في نهضة المجتمع ووحدته

يعتبر السادس عشر أفريل 1940 يوما تاريخيا ومحطة هامة في تاريخ الجزائر الحديثة حيث ارتبط

المرحلة الثانية: من العمل الجماعي تمتد من سنة 1936م إلى سنة 1940م تاريخ وفاة عبد الحميد بن باديس، ويمكن تسميتها بمرحلة «اليأس بعد الرجاء» كما يذكر ابن باديس، حيث تميزت هذه المرحلة بتصريحاته الجريئة والحادة في مواجهة الاستعمار، واستنهاض همم المجتمع، خاصة وأن جهوده الإصلاحية انتشرت في جميع أنحاء الوطن، وحمل أفكاره وأفكار جمعية العلماء غالبية الشعب الجزائري.

ويتأكد ذلك أكثر في تحويله لشعار مجلة «الشهاب» من «الحق والعدل والمؤاخاة في إعطاء جميع الحقوق للذين قاموا بجميع الواجبات» إلى الشعار الجديد المتمثل في: «لا نعتمد إلا على أنفسنا وتنكل على الله»، وبعد إعلان ابن باديس عن هذا التغير في الشعار ختم قوله بلهجة شديدة ملؤها اليأس من السياسة الاستعمارية، وبعث الأمل بالمستقبل الخير في نفوس

- العالم المربي المصلح الثائر
المجاهد - إلا إذا عرف دور (جمعية
العلماء المسلمين الجزائريين) وما
قامت به في الجزائر من إحياء لما
مات، ومن تجديد لما رث، ومن
تجميع لما افرق، ومن بناء لما
تهدم، ومن تطهير لما تلوث.

أهمية العلم عند ابن باديس:
لقد أدرك الإمام ابن باديس أهمية
العلم والتعليم بالنسبة للمسلمين
عامة، وللأمة الجزائرية التي حوربت
في دينها ولغتها وشخصيتها خاصة،
فوجّه جل اهتمامه لنشره، ذلك لأن
العلم الصحيح المبني على العقيدة
السليمة، هو وحده السبيل إلى نهضة
المجتمع وسعادة الإنسان في الدنيا
والآخرة.

إن شرف العلم وفضله لا يخفيان
على عامة الناس، فضلاً عن العلماء،
إذ هو الذي خصّ الله به الإنسانية دون
سواها من الحيوانات، وبه أظهر الله
تعالى فضل آدم عليه السلام على
الملائكة، وأمرهم بالسجود له. وإنما

بتاريخ وفاة العلامة الشيخ عبد
الحميد بن باديس (1889 - 1940)
أحد أئمة الإصلاح والتجديد في
العصر الحديث ورائد النهضة
الجزائرية الحديثة.

لقد أصبح هذا اليوم رمزا
للعلم، نعيد - عند الاحتفال به -
ذكرى جهود الشيخ ابن باديس
في رفع التحدي بالعلم والتعليم
والتربية والتوعية لإصلاح المجتمع
الجزائري والنهوض به.

من قرأ مقالات عبد
الحميد بن باديس وبحوثه وجده
كاتباً مبدعاً، وباحثاً متعمقاً، وأدرك
تمام الإدراك أننا أمام رجل مصلح
يعرف ماذا يريد من إصلاح لوطنه
وشعبه وأمته؟ وكيف الطريق إلى
تحقيق ما يريد؟ ويملك من الأدوات
والمؤهلات (العقلية والعلمية
والنفسية والخلقية والبيانية): ما يُمكنه
من تحقيق هدفه الذي يصبو إليه.
ولا يستطيع دارس أن يعرف
حقيقة الدور الذي قام به ابن باديس

فقد حَرَمَهُ من خصوصيته الإنسانية،
وحَوَّلَهُ إلى عيشة العجماوات،
وذلك نوع من المسخ).

ويذهب ابن باديس إلى أن العلم
هو حياة القلوب وإمام العمل،
وإنما العمل تابع له، فهو وحده
الإمام المتبع في الأقوال والأفعال
والاعتقادات، فمن دخل في العمل
بغير علم، لا يأمن على نفسه من
الضلال، ولا على عبادته من الفساد
والاختلال.

«فسلوك الإنسان في حياته،
مرتبط بتفكيره ارتباطاً وثيقاً، يستقيم
باستقامته، ويعوج باعوجاجه، ويثمر
بإثماره، ويعقم بعقمه، لأن أفعاله
ناشئة عن اعتقاداته، وأقواله إعراب
عن تلك الاعتقادات، واعتقاداته ثمرة
إدراكه الحاصل من تفكيره ونظره»⁽²⁰⁾.

ولا يتأتى ذلك العلم والنظر
إلا بالتعلّم وبذل الجهد في
ذلك، يقول تعالى: ﴿الرَّحْمَنُ ۝۱
عَلَّمَ الْقُرْآنَ ۝۲ خَلَقَ الْإِنْسَانَ ۝۳
عَلَّمَهُ الْبَيَانَ ۝۴﴾⁽²¹⁾، ويقول

شَرَّفَ العلم لكونه وسيلة إلى التقوى،
التي يستأهل بها المرء الكرامة عند
الله والسعادة الدائمة، ذلك لأن العلم
مع الإيمان، رفعة في الحياة الدنيا
وفي الآخرة.

يقول الله تعالى: ﴿يَرْفَعُ اللَّهُ الَّذِينَ
ءَامَنُوا مِنْكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجَاتٍ﴾⁽¹⁷⁾.

ويقول تعالى: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ
عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ﴾⁽¹⁸⁾.

وفي هذا يقول الرسول
الكريم ﷺ: «مَنْ يُرِدِ اللَّهُ بِهِ خَيْرًا
يُفَقِّهْهُ فِي الدِّينِ»⁽¹⁹⁾. فالعلم هو
الطريق إلى خشية الله وعبادته، كما
يحب أن يُعبد، (فهو الأصل الذي
تنبني عليه سعادة الدنيا والأخرى،
وأنه هو الأساس لكل أمر من أمور
الدين والدنيا).

ويرى ابن باديس أن البشرية بدون
علم، تعود إلى حيوانيتها، ذلك لأن
(الإنسان خاصيته التفكير في أفق
العلم الواسع الرحيب، فمن حَرَمَ
إنساناً - فرداً أو جماعة - من العلم،

تعالى: ﴿اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ⁽¹⁾
خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ عَلَقٍ⁽²⁾ اقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ⁽³⁾
الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ⁽⁴⁾ عَلَّمَ الْإِنْسَانَ مَا لَمْ
يَعْلَمُ⁽⁵⁾﴾⁽²²⁾.

ويقول رسول الله ﷺ: «إنما
بُعِثْتُ مُعَلِّمًا»⁽²³⁾.. فالتعلم هو
الطريق الصحيح لاكتساب
العلوم والمعارف: ﴿فَسَلُّوا أَهْلَ
الذِّكْرِ إِنْ كُنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾⁽²⁴⁾.
ويكفي العلم شرفاً أن العلماء
ورثة الأنبياء، وفي هذا يقول ابن
باديس: «لا حياة إلا بالعلم، وإنما
العلم بالتعلم، فلن يكون عالماً إلا
مَنْ كَانَ مُتَعَلِّمًا، كما لن يَضْلُحَ
مُعَلِّمًا إِلَّا مَنْ قَدْ كَانَ مُتَعَلِّمًا،
ومحمد ﷺ الذي بعثه الله معلماً،
كان أيضاً متعلماً، علّمه الله بلسان
جبريل، فكان متعلماً عن جبريل
عن ربِّ العالمين، ثم كان معلماً
للناس أجمعين»⁽²⁵⁾.

العلم أساس إصلاح ونهوض
المجتمع:
العلم هو إكسير حياة الأمة ودليل

نهضتها في عالم لم يعد العلم فيه
مجرد فكرة أساسية أو نشاطاً مهماً
بالنسبة لنهضة المجتمع، وإنما هو
مرادف لتحقيق النهضة ذاتها، فليس
من معنى للنهضة في عالم اليوم إلا
باعتبارها نهضة علمية.

ولقد أدرك الشيخ ابن باديس هذه
الحقيقة فلذلك جعل العلم الأساس
لكل عمل إصلاحي والمدخل لكل
تغيير اجتماعي وثقافي، ونهوض
فكري وسياسي. يقول في هذا
الصدر: «...علينا أن ننشر العلم
بالقلم في أبنائنا وبناتنا، في رجالنا
ونسائنا، على أساس ديننا وقوميتنا
إلى أقصى ما يمكننا أن نصل إليه
من العلم الذي هو تراث البشرية
جمعاء، وثمار جهادها في أحقاب
التاريخ المتطاوله. وبذلك نستحق
أن نتبوأ منزلتنا اللائقة بنا والتي
كانت لنا بين الأمم»⁽²⁶⁾.

لقد كانت سياسة الاستعمار
الفرنسي في السيطرة على الشعوب
هي نشر الجهل والامية بين أفرادها

الثقافية من خلال نشر العلم بالتربية والتعليم والوعظ والإرشاد. ولقد أجاب ابن باديس على أحد تلامذته، حينما سأله : «بأي شيء تحارب الاستعمار؟ فقال : أنا أحارب الاستعمار لأنني أعلم أينما أهدب؛ ومتى انتشر التعليم والتهديب في أرض أجذبت على الاستعمار وشعر في النهاية بسوء المصير»⁽²⁹⁾.

فانتهج ابن باديس سياسة تعليمية واسعة وشاملة بداية من عام 1332هـ ، 1913م لم يستثن أحدا من أفراد المجتمع، كان يعلم صغار الأطفال من الذكور والإناث في الصباح وكذلك بعد الظهر، وكان يقوم بإلقاء دروس عامة في الوعظ والإرشاد على الكبار في المساجد بالليل .

وقد نوّه الشيخ البشير الإبراهيمي بجهود ابن باديس التعليمية ونتائجها العظيمة على الحركة الإصلاحية حيث يقول : «...الثورة التعليمية التي أحدثها الأستاذ الشيخ عبد الحميد بن باديس بدروسه الحية،

لأنه كان يدرك كما قال الشيخ البشير الإبراهيمي أن الجهل والأمية «... لا تفشو في أمة وتشيع بين أفرادها إلا فتكت بها وألحقها بأخس أنواع الحيوانات، ومكنت فيها للجهل والسقوط والذلّة والمهانة والاستعباد ... (و) لا تفشو... في أمة إلا أفقدتها معظم خصائص الحياة»⁽²⁷⁾.

وما يؤكد هذه السياسة الاستعمارية أن: «فرص التعليم أمام الجزائريين طوال فترة الاحتلال التي دامت قرنا وثلاث قرن، محدودة للغاية، وحتى عام 1957 كان الثمن من مجموع الأطفال الجزائريين الذين هم في سن التعليم الابتدائي، يستطيعون الالتحاق بالمدارس الابتدائية، ومن بين هؤلاء يتمكن 10% فقط من مواصلة الدراسة في المرحلة الثانوية، وأقل بكثير من هذه النسبة في المرحلة الجامعية»⁽²⁸⁾.

لذلك كانت بداية مواجهة الباديسية من المحاولة لتحرير العقول والنفوس بانتهاج مواجهة

الوحدة الوطنية التي كانت سائدة في المجتمع الجزائري من خلال سياسة فرق تسد، أو تفكيك عرى الوحدة الاجتماعية بين الجزائريين وتحطيم شبكة علاقاتهم الاجتماعية المبنية على أساس الدين واللغة والتاريخ المشترك، من خلال زرع الشقاق والصراع وتغذية الفروق الاجتماعية وتنمية التّعرات العرقية وإثارها وتشجيعها وإعلاء بعضها على بعض، حتى يضلّ الصّراع بينها قائماً، وتتسع الهوة والخلاف والفرقة بين أبناء الدين الواحد؛ بين العرب والأمازيغ، كما عمل على تشتيت الأمازيغ إلى طرائق قحدا، حتى أصبحوا قبائل وشاوية وميزابيين وطوارق... وبين الأمازيغ أنفسهم: القبائل والشاوية وبني ميزاب، وبين المذاهب الفقهية: المالكية الإباضية...

وسياسة التفريق هذه الهدف منها إحكام السيطرة على البلاد وإشغال المستعمر عن التطلع للحرية أو المطالبة بحقوقه.

والتربية الصحيحة التي كان يأخذ بها تلاميذه، والتعاليم الحقة التي يبثها في نفوسهم الطاهرة النقية والإعداد البعيد المدى الذي كان يغذي به أرواحهم الوثابة الفتية، كادت تنقضي مدة حتى كان الفوج الأول من تلاميذ ابن باديس مستكمل الأدوات من فكر صحيح وعقول نيرة ونفوس طامحة وعزائم صادقة...»⁽³⁰⁾.

كما أدرك ابن باديس أن حياة الأمة ورفقها إنما يكون بأخذها لأسباب التعليم حيث يقول: «ولا أدل على وجود روح الحياة في الأمة وشعورها بنفسها ورغبتها في التقدم من أخذها بأسباب التعليم الذي ينشر فيها الحياة ويبعثها على العمل ويسمو بشخصيتها في سلم الرقي الإنساني ويظهر كيانها بين الأمم»⁽³¹⁾.

العلم والتوعية أساس الوحدة الوطنية:

لقد كان لسياسة التجهيل الاستعمارية دور بارز في تفكيك روح

من خلال حثه على الاهتمام
بالمصلحة العامة على حساب
المصالح الخاصة ووجوب «تناسي
كل خلاف يفرق الكلمة ويصدع
الوحدة ويوجد للشعر ثغرة، ويتحتم
التآزر والتكاتف حتى تنفجر الأزمة
وتزول الشدة بإذن الله...»⁽³²⁾.

كان يريد أن يتوحد الشعب
الجزائري توحدا حقيقيا، بحيث
يكون كالبنيان المرصوص، يشد
بعضه بعضا، أو كالجسد الواحد، إذا
اشتكى منه عضو تألم سائر الأعضاء.

وهنا لا يسمح بإثارة أي نوع
من الخلافات المفرقة بين الشعب
الواحد، فلا مجال للقول بانقسام
الجزائر إلى عرب وبربر، فقد عزّب
الإسلام البربر.

ولقد بذل الشيخ جهده، بتنفيذ
هذه الأسطورة، فنقضها من أساسها،
وأثبت أن الأخوة الإسلامية قد أذابت
الفوارق بينهما، وجعلت منهما شيئا
واحدا، على مدار التاريخ.

وكأن التاريخ يعيد نفسه فإن ما
نلاحظه اليوم مما يحدث في العديد
من الدول العربية التي مسها ما
يسمى بالربيع العربي ليؤكد لنا دور
الأجهزة الأجنبية في نشر الفرقة
والعداوة داخل هذه الدول والتي
تسببت في سيلان حمامات الدم
بين أفراد المجتمع الواحد لتسهل
السيطرة على خيراتها وثرواتها.

إن وعي ابن باديس ونظرته
العميقة وأفقه الواسع كان له دور كبير
في مواجهة هذه السياسة الاستعمارية
وتوعية المجتمع الجزائري وتنبيهه
إلى خطورة ما يدبر له من خلال
حلق الدروس والمحاضرات التي كان
يلقيها في حله وترحاله أو من خلال
مقالاته الصحفية التي كان ينشرها في
الشهاب والبصائر وغيرها.

لقد عمل ابن باديس على تمتين
أواصر الوحدة الوطنية وربط شبكة
العلاقات الاجتماعية للمجتمع
الجزائري على أساس المقومات
السابقة نفسها: الدين واللغة والتاريخ

كما سعى ابن باديس إلى فض النزاع والخلاف بين أهل المذاهب الإسلامية وتحقيق الأخوة والوحدة بينهم، خاصة بعد الشقاق الذي وقع بين المالكية والإباضية بمدينة غرداية، وفي هذا الصدد كتب ابن باديس: «إننا دعاة إصلاح واتحاد بين المسلمين على اختلاف مذاهبهم وإننا ندين - قولا وعملا واعتقادا - بقوله تعالى: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلَحُوا بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾⁽³⁵⁾، حسب جهدنا وطاقتنا ونستغفر الله تعالى مما يكون منا في ذلك من تقصير»⁽³⁶⁾.

والوحدة الحقيقية في نظر ابن باديس تكمن في اتحاد القلوب والأرواح والعقول حيث يقول: «ليس تكون الأمة يتوقف على اتحاد دمها ولكنه متوقف على اتحاد قلوبها وأرواحها وعقولها اتحادا يظهر في وحدة اللسان وآدابه واشتراك الآلام والآمال»⁽³⁷⁾.

وهذا الاتحاد بين أفراد المجتمع لن يترسخ ولن يستمر إلا إذا أدى كل واحد

يقول رحمه الله : «إن أبناء يعرب وأبناء مازيغ قد جمع بينهم الإسلام منذ بضعة عشر قرنا، ثم دأبت تلك القرون تمزج ما بينهم في الشدة والرخاء وتؤلف بينهم في العسر واليسر، وتوحدهم في السراء والضراء حتى كونت منهم منذ أحقاب بعيدة عنصرا مسلما جزائريا، أمه الجزائري وأبوه الإسلام. وقد كتب أبناء يعرب وأبناء مازيغ آيات اتحادهم على صفحات هذه القرون بما أراقوا من دمائهم في ميادين الشرف لإعلاء كلمة الله، وما أسالوا من محابرههم في مجالس الدرس لخدمة العلم...»⁽³³⁾.

ثم يؤكد على أن هذا الاتحاد سيبقى ولن تستطيع أي قوة أن تفرقه بأي قوة بعد هذا يقول عاقل تستطيع أن تفرقهم؟ لولا الظنون الكواذب والأمانى الخوادم، يا عجباً! لم يفترقوا وهم الأقوياء، فكيف يفترقون وغيرهم القوي؟ كلا والله، بل لا تريدكم كل محاولة للتفريق بينهم إلا شدة في اتحادهم وقوة لرابطتهم...»⁽³⁴⁾.

تواردت أفراد المجتمع على هذه التأدية سعدت وسعد مجتمعا بنيله حاجيات الحياة ولوازم البقاء والتقدم في العمران»⁽³⁹⁾.

وبالمقابل فإن ابن باديس يبين أن التقصير في أداء الواجب يعني الانحطاط واختلال نظام المجتمع حيث يقول «أما إذا توانى الأفراد في القيام بالحقوق، وقصروا في تأديتها إلى بعضهم... يختل نظام الاجتماع ويعود إلى الانحلال والتقهقر وينحط بأفراده إلى أسفل الدركات»⁽⁴⁰⁾.

خاتمة:

ونختم عرضنا المتواضع بشهادة الشيخ محمد البشير الإبراهيمي في بيان السياسة التعليمية التي انتهجها الشيخ عبد الحميد بن باديس وكيف آتت أكلها في إحياء أمة كادت أن تموت. يقول الشيخ محمد البشير الإبراهيمي - رفيق دربه في الإصلاح، وأقرب الناس إليه، وأعرفهم بمناقبه - يقول عنه: «إنه باني النهضة

واجبه اتجاه الآخرين لأنه «إذا أخلد الإنسان لوهم الحقوق ونسى وازع الواجب وعم ذلك بين أفراد المجتمع فإن ذلك سوف يفكك عرى الترابط في هذا المجتمع لاختلاف الحقوق وتعارضها، إن التنمية في المجتمع تبدأ مسيرتها عندما ينسى أفراد هذا المجتمع حقوقهم ويذكروا واجباتهم...»⁽³⁸⁾.

لذلك كان تركيز ابن باديس في العملية التعليمية والتربوية ينبنى على أداء الواجبات وإعطاء الحقوق لأصحابها كسلوك يسري بين أفراد المجتمع حتى يحقق نهضته ورقيه حضاريا حيث يقول في هذا الشأن: «الناس كلهم في حاجة مشتركة إلى بعضهم، وما من أحد إلا وله حقوق على غيره ولغيره حقوق عليه... وقيام كل واحد من أفراد المجتمع بما عليه من حقوق نحو غيره هو الذي يسد تلك الحاجة المشتركة بين الناس... وعندما يؤدي كل واحد حق غيره فليست خدمته له وحده بل هي خدمة للمجتمع كله... فإذا

المنابر، الأستاذ الرئيس الشيخ عبد الحميد بن باديس، أول رئيس لجمعية العلماء المسلمين الجزائريين، وأول مؤسس لنوادي العلم والأدب وجمعيات التربية والتعليم، وحسبه من المجد التاريخي أنه أحيا أمة تعاقبت عليها الأحداث والغير، ودينًا لابسته المحدثات والبدع، ولسانًا أكلته الرطانات الأجنبية، وتاريخًا غطى عليه النسيان، ومجدًا أضاعه ورثة السوء، وفضائل قتلها رذائل الغرب)، فرحم الله تلك الأرواح الطاهرة.

العلمية والفكرية بالجزائر، وواضع أسسها على صخرة الحق، وقائد زحفها المغيرة إلى الغايات العليا، وإمام الحركة السلفية، ومنشئ مجلة (الشهاب) مرآة الإصلاح وسيف المصلحين، ومربي جيلين كاملين على الهداية القرآنية والهدي المحمدي وعلى التفكير الصحيح، ومحبي دوارس العلم بدروسه الحية، ومفسر كلام الله على الطريقة السلفية في مجالس انتظمت ربع قرن، وغارس بذور الوطنية الصحيحة، وملقن مبادئها على البيان، وفارس

الهوامش

- (1) ذم الكلام وأهله (5/ 471)
- (2) صحيح البخاري رقم 7616 (8/ 93).
- (3) جامع بيان العلم وفضله: 1 / 905 - 015.
- (4) رواه الترمذي وغيره وصححه الألباني.
- (5) عبد المجيد النجار.
- (6) (الشهاب ج 8 م 31).
- (7) سورة الإسراء/02.
- (8) عبد الحميد بن باديس
- (9) سورة الإسراء/63
- (10) (عبد الحميد بن باديس، مرجع سابق: ص 431).
- (11) أخرجه الإمام مالك رقم 7063/418، ومسلم رقم 3262/931.
- (12) (عمار الطالبي ج 3، مرجع سابق: ص 42).
- (13) (محمد خير الدين، 483).

(29) (مجلة الموافقات ع 6 س 6، مرجع سابق : ص 354)

(30) (جمعية العلماء المسلمين الجزائريين سجل مؤتمر: ص 74، 84).

(31) (الموافقات ع 6 س 6، مرجع سابق: ص 154، 254).

(32) (جمعية العلماء المسلمين الجزائريين «نصوص ووثائق»: ص 6).

(33) (مجموعة جريدة البصائر، ج 1: ص 81)

(34) (مجموعة جريدة البصائر: ص 81)

(35) (الحجرات: 01).

(36) (الشهاب ج 21 م 6، مرجع سابق: ص 867).

(37) (المجاهد الثقافي ع 1، 7691 م: ص 01).

(38) (سيد دسوقي حسن، محمود محمد

سفر، ثغرة في الطريق المسدود 1041هـ، 1891م: ص 97).

(39) (عبد الحميد بن باديس، تفسير ابن باديس، 1991م، ص 201، 301)

(40) (عبد الحميد بن باديس، المرجع نفسه: ص 301)

(14) (عمر عبيد حسنة، 9141هـ، مرجع سابق: ص 78).

(15) (جمعية العلماء المسلمين الجزائريين.

(16) (الفكر س 1 ع 1، مرجع سابق: ص 46).

(17) (المجادلة: 11)

(18) (فاطر: 82)

(19) صحيح البخاري رقم 17 (ص: 1/ 52).

(20) (عبد الحميد بن باديس، التفسير 1991 : ص 331)

(21) (الرحمن: 1-4)

(22) (العلق: 1-5)

(23) سنن الدارمي رقم 163 (1/ 563)

(24) (الأنبياء: 7)

(25) (تفسير ابن باديس)

(26) (الشهاب: ج 3، م 51 - ربيع الأول 8531هـ - أبريل 9391 م).

(27) (جمعية العلماء المسلمين الجزائريين (سجل مؤتمر: ص 59، 69).

(28) رابع تركي، الشيخ عبد الحميد بن باديس فلسفته وجهوده في التربية والتعليم: ص 541.